١٠ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني

يلاحظ في مصر أن القليل من المال يكفي لإعالة ذرية كثيرة[1] وأسرة كبيرة. ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيما، فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احتراماً عميقاً خليقا بالمدح. ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا. وهم يضعونه لجسامته مع الكبائر الست الأخرى، وهي الشرك بالله وقتل النفس وقذف العفيفات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد العدو. وقلما ترى في مصر أو في العرب من لا يطيع والديه. ويصطبح الطفل، في الطبقات الوسطى والعليا، بتقبيل يد أبيه، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف. ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه. ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه، وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومركزهم. ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة في تصرفاته خارج الحريم، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء اللذان كثيراً ما يعدان، من غير حق، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق[2]. ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك. وكثيراً ما يقومون أيضاً على خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى. ويظل الأبناء كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً. وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار على مائدة تاجر مصري أعدت أمام داره. وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا، مهما كان فقيراً، إلى مشاركتنا الطعام. ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين. وقد لاحظت أنهما لم يتناولا بالرغم من صيامهما طول اليوم غير جرعة ماء؛ فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا، فأجاب رجائي في الحال؛ ولكنهما رفضا. وتتمتع الأم بأكبر قسط من عطف أطفالها ولكنها لا تتمتع مثل الأب بأكبر قسط من الاحترام. وقد رأيت خدماً كثيرين يعطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم، وقلما كنت أرى من يدخر شيئاً لأبيه

ويلاحظ أن الأطفال المصريين، ما عدا أطفال الأغنياء، يظلون داعماً قذرى الشكل ممزق الثياب، مع أنهم في محل الرغبة وموضع التفكير. وقد يشمئز الأجانب من رؤيتهم، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا عن سبب آخر لذلك. ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلاً وعناية، أقذرهم جسماً وأحقرهم ثياباً. وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات في شوارع القاهرة متشدات في مشيتهن، معطرات الجو بعطر المسك، مراعيات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة، معتنيات بكحل عيونهن، مخضبات الأصابع، بينما يرافقهن طفل قد يكون الوحيد، وهو ملطخ الوجه ملوث الثياب. ومن الأشياء التي أثارت عجبي عند قدومي إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل؛ وقد لفتت نظري لغرابتها وتناقضها، فأخبرت أن الأم الحانية على أطفالها تهمل هندامهم فتتركهم بلا نظافة، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً، وعلى الأخص عند ما يرافقونها في الخارج خوفاً من شر العين. ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة ويشتهيها الجميع. ويرجع للسبب نفسه حجز الأطفال في الحريم طويلاً؛ حتى أن البعض يلبسون الذكور من أطفالهن ملابس الإناث لأن البنت أقل تعرضاً للحسد. وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالاً. فهم فضلاً عن قلة ملابسهم وحقارتها أو تمام عريهم قذرون إلى أقصى حد. تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكترثوا لذلك. ويعتبر المصريون أن

(١) وقد ذكر ديودور الصيقلي أن قدماء المصريين كانوا يكسون أولادهم ويربونهم بأقل نفقة

(٢) إن نظام الحكومة الشرقية ليس إلا اتساعا لنظام المنزل الأبوي (Urquhart's Spirit of the East vol. ii p. 249) (روح الشرق تأليف أوركهارت الجزء الثاني ص ٢٤٩).

غسل العين أو حتى لمسها عند ما يميل منها الصديد الذى يجذب الذباب ، مضر بها . ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عند ما تصاب بهذا السيلان ، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم

ويختن الولد فى سن الخامسة أو السادسة ، وأحياناً بعد ذلك[1] وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين، إذا توفر لديهم مال ، بزف الولد فى موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل . وكثيراً ما يحتفلون بزفة الختان مع زفة عرس فى الوقت نفسه تقليلاً من نفقات الاحتفال . وفى الحالة الأخيرة يتقدم الموكبَ الولدُ وحاشيته . والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر ، وقد يرتدى لاعتبارات أخرى ثياب أنثى ، فيلبس اليلك والسلطة والقرص والصفا وغيرها من حلى النساء ، ليجتذب العين الحاسدة إليها ويلهيها عن شخصه . وتستعار هذه الملابس عادة من بعض السيدات الموسرات ، وتكون من أفخر الملابس وأبهاها كما تكون كافية السعة لتلائم الولد . ويستعار كذلك حصان جميل العدة ليركبه المحتفل به . ويمسك الولد بيده اليمنى منديلاً مطرزاً مطوياً يضمه باستمرار أمام فمه ليحجب بعض وجهه اتقاء شر العين . ويتقدم المحتفلَ به سبي الحلاق الذى سيقوم بعملية الختان، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر ؛ وآلاتهم لا تتعدى المزمار والطبول ، كما ترى فى (شكل ٣١) . فالشخص الذى يتقدم الموكب هو سبي الحلاق — كما ذكر — ويحمل (الحمل) وهو صندوق خشبي نصف أسطوانى ذو قوائم أربع قصيرة ، يزين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش ، ويغطى ظهره بستار . وهذا الحمل هو شعار الحلاق . ويحمله الخادم بالطريقة المبينة فى الرسم ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الحمل) ، ثم الولد يقود جواده سائس ؛ وأخيراً يمشى خلفه الكثير من القريبات والصديقات . وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين مما وقد يحملهما حصان واحد . أما موكب العرس الذى كثيراً ما يتضمن موكب ختان كما سبق فسنتكلم عنه فى حينه . وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة ،

(١) عند الفلاحين ليس أقل من سن الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة

فى الفصل المتعلق بمختلف الأفراح والأعياد الخاصة[1]

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما فى تربية الطفل تربية ذهنية ، فانبين بتثبيت بعض المبادئ الدينية فى ذهنه الصغير، فإذا كانت لديهم المقدرة، يعهدون به للمدرسين.

(شكل ٣١)

ويلقن الطفل فى سن مبكرة بقدر الإمكان الشهادتين وحب الإسلام . وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى ، وبعض أطفال الطبقات الدنيا يتعلمون فى الكتّاب القراءة وتلاوة القرآن أو ترتيله[2] ؛ ثم يتعلمون بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة

والكتاتيب كثيرة العدد لا فى العاصمة فحسب ، بل فى كل مدينة كبيرة ، كما يوجد فى كل قرية كبيرة مدرسة واحدة — على الأقل — وملحق بكل مسجد وسبيل وحوض فى العاصمة كتّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور ؛ إذ يتناول « الشيخ » أو « الفقى »[3] كل خميس من أب الطالب نصف قرش أو أى شىء آخر . ويتناول مدرس المدارس الملحقة بالمساجد أو بغيرها من مبانى العاصمة العامة سنوياً طربوشاً وقطعة

(١) وهناك عادة ذكرها سترابو Strabo (ص ٨٢٤) باعتبارها سادت مصر فى عهده ؛ ولا زالت شائعة فى أنحاء مصر يراعيها المسلمون والقبط جميعاً إلا فى الاسكندرية وفى بعض المناطق الساحلية . وهى تسود أيضاً جزيرة العرب وإن كانت أقل شيوعاً . وقد لاحظ رلاند Reland الذى وصف هذه العادة وصفاً ناقصاً فى كتابه (فى الدين الاسلامى) ص ٧٥ نمرة ١٧١٧ (De Religione Mohammedica p. 75 ed., 1717) وأن جالن Galen ذكرها أيضاً

(٢) أنظر فصل الموسيقى

(٣) هذا اللفظ تحريف لكلمة « فقيه » التى تطلق فى مصر على الذين حذقوا الدين والفقه . أما الرجل الذى يحترف تلاوة القرآن أو يدرس تلاوة القرآن ، فيسمى عادة « قارئ »

من الموصلي الأبيض العمامة وقطعة من الكتان وحذاء . كذلك يتناول كل ولد طاقية من الكتان وقطعة من نسيج القطن طولها أربعة أذرع بلدية أو خمسة ، وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان مقداره ١٠ أو ١٢ ذراعاً بلدياً وحذاء ، وأحياناً يعطون قرشاً أو نصف قرش ؛ وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة وتقدم في شهر رمضان . ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى منازلهم . ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . وتسلم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه . والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة من القرآن ، أو جزء من أجزائه الثلاثين ، توضع على كرسي من الجريد ، ويلتف الأولاد بجميعهم درس القراءة أو ينشدونه بصوت واحد عال ، هازين رؤوسهم وأجسامهم هزاً لا ينقطع أماماً وخلفاً ؛ وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك العادة ظناً أنها تساعد على التذكر ، وليتصور القارئ أي ضجة يحدثونها[1].

وأول ما يتعلم الأولاد حروف الهجاء ، الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء[2] . وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة في تعليمه أن يزين المدرس اللوح بالحبر الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددي ويرسلها إلى والد التلميذ ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك في مراحل التعليم اللاحقة ، وفي كل مرة يكتب الدرس التالي على اللوح . وعند ما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء يتمرن على قراءة الكلمات السهلة ، مثل أسماء الرجال ، ثم صفات الله التسع والتسعين ، وبعد ذلك يحفظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً ، ثم يشرع في حفظ السور الأخرى . ويندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عند ما يخصصون لبعض الوظائف التي تتطلب معرفتها . وفي هذه الحالة يتعلمون الكتابة والحساب كذلك على يد « قباني » ، وهو الشخص المنوط به وزن البضائع في السوق على القبان . أما الذين يسلكون أنفسهم في النظام الديني أو في أي مهنة علمية فيتبع غالبهم تعليماً منتظماً في الجامع الأزهر

(١) والعقوبة العادية على ضرب الطفل بجريدة من جريد النخل على بطن القدم

(٢) عند ما تستعمل حروف الهجاء للدلالة على الأعداد ترتب على ترتيب الحروف الهجائية العبرية

وأغلب معلمي الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع . والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية ، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن في المناسبات الخاصة . وقد حدثوني أخيراً عن رجل لا يحسن القراءة والكتابة نجح في شغل وظيفة مدرس ؛ فقد كان يحفظ القرآن كله وذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس . أما تعليمهم الكتابة فقد كان يستخدم فيها (العريف) مدعياً ضعف النظر . وبعد شغله هذا المنصب بأيام جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من ابن لها ذهب للحج . فتظاهر الفقي بالقراءة ولكنه لم يفه بحرف واحد . فاستوجست المرأة من سكوته شراً واستنتجت من هدوئه أخباراً سيئة فقالت له : « هل أمتُّ ؟ » فأجابها « نعم » وسألته : « هل أمزق ثيابي » فأجابها : « نعم » . فرجعت المسكينة إلى منزلها وأقامت هي وصاحباتها مناحة ومأتماً . ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها ، فسألته ماذا يعني بهذا الخطاب الذي يخبرها بموته ؟ فلما شرح لها ما في الخطاب ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ما دام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه في طريق العودة ؟ فأجابها غير مضطرب : « إن الله عنده علم الغيب . فمن أين لي أن أعرف أن ولدك سيعود سليماً ؟ وكان خيراً لك أن تظنيه ميتاً حتى لا تنتظري عودته ، وقد يخيب انتظارك » . فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته : حقاً إن « فقينا » الجديد رجل ثاقب البصر حكيم . وهكذا بين عشية وضحاها ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها[1] . وبعض الآباء يجعلون لأولادهم شيخاً يعلمهم في المنزل . والعادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر إمكانه . وقد أمر الرسول (صلعم) أن يسوَّد الصلاة من يبلغ السابعة ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة ، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده في هذه السن . ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ .

(يتبع)

عدلي طاهر نور

(١) وقد وجدت بعد ذلك قصة تكاد تشبه هذه الحادثة تماماً في كتاب ألف ليلة وليلة ، طبعة القاهرة . وهي حكاية من الحكايات الملحقة بالفصل الثامن عشر من الترجمة التي ترجمتها لذلك الكتاب . وذلك إما أن تكون القصة التي بأيدينا غير صحيحة ، وإما أن يكون الرجل المشار إليه مقلداً للقصة السابقة . والحالة الأخيرة قد تكون محتملة ؛ فقد حكى لي عدة حكايات مماثلة تستحق التصديق فضلاً عن أني أعرف أن واحدة منها أمر واقعي